الفصل الخامس

تابع أخبار ما حدث في عهد بطريركية إسطفان الدويهي

١٦٧٦-١٦٨٢

إن من يطالع تواريخ تلك الأيام تأخذه الحيرة من كثرة المصائب والبلايا التي أنزلها الله على أهل هذه البلاد. إنما يجب على القاري أن يلاحظ عادة المؤرخين الذين يسهبون في الاخبار المفجعة الأليمة ويضربون صفحًا عن النعم. هكذا الإنسان يحسب النعمة واجبة لطبيعته ولا يطيق حمل المصائب وإن تكن خفيفة. ومع ذلك لا ننكر ان الشدائد كانت تفوق الخيرات وتدفع الناس إلى اليأس. ولا زلنا نقول ان مبدأ القلق وعلة سلب الراحة من الجبل حكامه وضغائنهم وتقلباتهم مع ارياح الكبرياء والطمع أو بعبارة أخرى تطلب المناصب والسيادة وهو ما يسمونه اليوم حب الوظائف. قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٦ ان حسن باشا لما تقرر على ايالة طرابلس ولّى بعض الأعيان على بلاد جبيل والبترون وجبة بشري ونزع الحكم من بيت حماده. إلا انه اتاه الأمير بالمسير على تركمان البقاعة وفي غيابه قام آل حماده علىالذين نصبهم في المقاطعات المار ذكرها فقتلوا منهم واسروا وسلبوا. ولما رجع حسن باشا وعلم بما كان قد جرى غضب وزحف بالرجال إلى بلاد جبيل وأوقع بالمتمردين أشد العقوبات وأحرق قراهم. وبعد رجوع العسكر جاء مشايخ بيت حماده وأضرموا نيران الانتقام في أمكنة شتى وكانت أيام شديدة على الفلاحين. وأظهر الله غيظه على الناس لقاء قبائحهم وفشا الطاعون الجدري وفتكا بالأطفال خصوصًا لأنّ الله لا يرضى إلا بالضحايا الطاهرة النقية.

https://patriarchdoueihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

وفي أواخر هذه السنة في ٢٣ تشرين الآخر توفي في القسطنطنية الصدر وزراء أحمد الكبرلي وكان تولى الوزارة بعد أبيه محمد باشا الكبرلي الذي تسلم ايالة طرابلس سنة ١٦٥٣ وأعطى المقدم علي حماده مقاطعة البترون والشيخ أحمد بن عباده مقاطعة الجبة ثم دعي إلى منصب الوزارة الفخيمة بعد تنزيل مراد باشا سنة ١٦٥٦. والوزير أحمد الذي أتينا بذكر وفاته هنا قدم إلى الشام سنة ١٦٦٠ بسبب الشكايات التي كانت رفعت إلى الباب العالي على الأمراء الشهابيين وجمع عساكر لمحاربتهم فسعوا باستعطاف خاطره ومنعوا اشهار السلاح عليهم. وهو الذي فتح جزيرة اكريت وجدد المعاهدات القديمة مع دولة فرنسة التي أشرنا إليها. وكان مهيبًا حكيمًا ساس الممالك العثمانية سنين طويلة وكان له في التدبير الباع الطويل ولعب في مرسح السياسة دورًا ذا أهمية. وخلفه في الوزارة قرا مصطفى باشا فبدّل النواب في جميع الايالات وأرسل إلى طرابلس محمد باشا. وهذا عند قدومه كتب البلاد على آل حماده وردّهم إلى العز والاستبداد.

ولكي يفهم القاري اخبار تلك الاعصار رأينا أن نلخص هنا تاريخ الأسرة الحمادية الشيعية لوجود اسمهم في كل حادث.

روى المؤرخون الثقات ان آل حماده قوم من العجم من مدينة بخارى. وكان جدهم حمادة من بعض أهلها ونشأ فيها واشتهر ثم أراد الخروج على سلطان تلك الديار فوجه إليه السلطان جيشًا وقتل من تعصب له وفرّ حماده بأهله وعشيرته وقدم إلى جبل لبنان وحلّ في قهمز[1] في صرود كسروان بالقرب من لاسا. وتفرق بنوه في جبة المنيطره ووادي علمات واستلموا الحكم في الهرمل والجبة والضنية ووقع خلاف بينهم وبين الأمراء آل عساف حكام غزير إلى أن زال بقتل بعض أقاربهم وجوزي القاتل وهو أحدهم بالولاية على بلاد جبيل وسكن في جاج. ثم احتالوا على بيت الشاعر المتولين بلاد البترون ونزعوا منهم الحكم وأخذوه وعظمت صولتهم.

ثم لما توفي سرحان حماده في ايليج في وادي ميفوق اختلف أولاد حسين وهم اسماعيل وابرهيم وعيسى. فأخذ ابرهيم[2] وعيسى قاطعة جبيل والفتوح ونقل اسماعيل من ايليج إلى صرود الجبال وسكن في قرية لاسا وبنى فيها دارًا ووضع عليها هذا التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم
شيّد مكانًا اسمعيل شيخ في النسب
حاز المكارم وأضحى أعلى الرتب
داس المنايا أفرادًا ثم بالجملة
اسمعيل حماده سبع الغاب والكرم
الف ومائة واربع وخمسين[3]

https://patriarchdoueihy.com/Ehdel-Zgharta
Maronite Patriarchal Eparchy Ehdel-Zgharta

وتقدم اسمعيل على سائر الحكام وكان الجميع يهابونه ويخافونه ونفذ أمره حتى حلب فبلغ وقتئذ الحماديون من العز أعلاه.

أما دخولهم جبة بشري فكان على اثر تغيير الحكام والأحوال في تلك الناحية فقام وجوه البلاد وطلبوا من سرحان حماده أن يوجه إليهم أحد أبناء أسرته ليكون حاكمًا على الجبة فوجه معهم ابن عمه أحمد المكنّى ابا زعزوعة لأنّه كان صغير السن. وصار الاتفاق على ان الشيخ أحمد

[1] وتلفظ قمز.
[2] عثرنا على قصيدتين للمطران جرمانوس فرحات يرثي بهما ابرهيم حماده وقد نشر المشق إحداهما أمّا الأخرى فإنّها لم تطبع بعد.
[3] ١٧٤١م.

المذكور يحكم البلاد ويكون أمره نافذًا مطاعًا في كل شيء ما عدا ثلاثة أشياء: الدين والعرض والدم. واستلم أحمد الحكم في أواسط القرن السابع عشر أي نحو سنة ١٦٥٥. وسلك بالعدل وفرح به الكبير والوضيع. وخلفه في الحكم ابنه حسين سنة ١٦٧٧ واقتفى آثار والده ومات عن ولدين أحدهما حسين المشطوب والآخر أبو محمد عيسى. فعيسى خلف أباه في الحكم. وكان عالي الهمة مجتهدًا في ما فيه عمران البلاد وسيأتي الكلام عنه في حياة البطريرك إسطفان ومات مقتولاً في دير مار جرجس حماطورا من شديد الناصر سنة ١٧١٤ في الثاني والعشرين من آذار. واستمر الحماديون في الحكم على البلاد إلى أن استفحلت دولتهم واستغوتهم لاسيادة واستباحوا سائر المنكرات فقام عليهم الشعب وبعد مواقع كثيرة نزعوا منهم الحكم وأخرجوهم من البلاد.

وكان تقدم آل حماده سببًا لشرور كثيرة حتى في أيام عدلهم وسلوكهم على موجب القوانين والشرائع لأن وجودهم في أعالي لبنان جذب إليها كثيرين من الشيعيين من البقاع فاستوطنوا جبة المنيطرة وقرى صرود كسروان وجبيل وغيرها ونشروا في البلاد روح القتل والنهب جريًا على عوائد الاصقاع الهجمية التي نشأوا فيها. ومن قلّب الأوراق القديمة الباقية من تلك الأيام لا يجد فيها سوى أفعالهم السيئة. وفي سنة ١٦٧٦ قتل متاولة فاريا بعض أشخاص من مزرعة كفردبيان فعاقبهم الأمير المعني وأحرق ضيعتهم وأمر بقطع أشجارها. وفي عام ١٦٨٢ قتلوا أحد رهبان مار عبدا هرهريا. وفي سنة ١٦٨٣ قتلوا أربعة أشخاص من غسطا وراهبًا آخر من رهبان مار عبدا وثلاثة من مزرعة كفردبيان. وسنة ١٦٨٤ كبسوا عشقوت وقتلوا أحد عشر نفسًا ونهبوها وعادوا إلى مقامهم غانمين مطمئنين. فركب ابن معن عليهم وخرب بلادهم ثم أرسلت الدولة جيشًا في إثرهم وقطعوا أشجارهم ورفعوا عن البلاد ثقل وطأتهم

https://patriarchdoualiny.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden Zgharta

فمن لا يشعر عند ذكر هذه الحوادث فقط بالضيقات الشديدة التي كان يتقلّب فيها سكان الجبل. ومن لا يعلم ان مصائب البنين يكون تأثيرها في الآباء أكثر منه فيهم وعليه فمن يقدر يصف اضطراب نفس ذاك الأب الحنون البطريرك إسطفان عند مشاهدة الخراب والخوف والضيق حول بنيه وليس من يجبر ويدفع يد المعتدين.

وفي تراكم البلايا والهموم أصيبت الأسرة الخازنية بل الطائفة كلها برزية مفجعة. ألا وهي وفاة الشهم الكريم الهمام ذي الأيادي البيضاء الشيخ نادر الخازن المعروف بأبي نوفل. ولا نرى بدًا

[٤] عن دفتر صغير بخط الخوري عون نجيم من غوسطا راهب دير مار شليطا. هذا انتقل إلى مار سركيس ريفون عند أولاد عمّته بني سليمان مبارك الذي ترهب مع أولاده في الدير المذكور سنة ١٦٧٠ واقتبل الكهنوت معهم. وابناه يوسف وجبرائيل نالا درجة الأسقفية. وتوفي الخوري عون المذكور في ريفون سنة ١٦٩٦ في ١٣ آذار. وقد نسخ بيده عددًا من الكتب.

من تلخيص ترجمته هنا احياء لذكره لأنه كان ركن البلاد ومحامي الدين. ولم يترك فرصة إلا وقدّم فيها للبطريرك إسطفان الإكرام والاعتبار. وساعده في الأعمال الخيرية وخدم الطائفة خدمة مأثورة بنفوذه وماله. إن الشيخ نادر الملقب بأبي نوفل كان ابن خازن بن صقر بن ابرهيم ابن الشدياق سركيس الخازن. ويروي التاريخ أن الأمير فخر الدين المعني لما سافر إلى أوروبا سنة ١٦١٣ وكّل إلى أبي نادر خدمة حريمه وتدبير أرزاقه فاستمرت هذه العادة في أيام المعنيين والشهابيين أن يولوا على ديارهم الخوازنة ويعهدوا إليهم نقل بيوتهم ونسائهم متى لزم الأمر. ومن ذلك لقب المشائخ آل الخازن بحافظي سر بيت معن. وسنة ١٦١٥ حكم أبو نادر مقاطعة كسروان وسنة ١٦١٨ ولاه الأمير فخر الدين على جبيل والبترون وغيرها. ولا نعرف له ولدًا سوى نادر. تزوج نادر بابنة الشيخ معتوق حبيش ورزق منها ولدين نوفل وأسد. فنوفل (ويدعى الأول) مات وأمه في قلعة صمر جبيل من زلزلة حدثت وهدمت البرج الأوسط من القلعة المذكورة. وأسد توفي في صغره. ثم تزوج نادر ثانية ورزق فياض (ابا قنصوه) ونوفل (الثاني وهو ابو ناصيف) وخازن (الذي قتله فياض أخوه) وطربيه (وهو ابو ظاهر) وخاطر. وبعد موت زوجته الثانية أخذ امرأة من بيت الدهان وولد له منها علم (ابو النصر) وقيس (ابو كنعان) وسليمان الذي لقب بأبي علي من حادثة جرت له في الشام.

وسنة ١٦٣٣ قبض على ابي نوفل مع الأمير علي بن فخر الدين في قلعة المرقب حيث كان اختبأا وأخذ الأمير فخر الدين نفسه وكاخيته ابو نادر في قلعة نيحا في الشوف وأرسل بعضهم إلى حلب ولابعض إلى دمشق. اما أبو نوفل فهرب من حلي وولده ابو نادر افتدى نفسه بدراهم. أما الأمير فخر الدين فأرسل إلى اسطنبول وقتل مع بنيه. وخلفه ابن عم البلاد ابن أخيه الأمير ملحم. وبعد موت الأمير فخر الدين انكسرت شوكة آل خازن وجار عليهم بعض ولاة الامور. فذهب ابو نادر واخوه فاضل ابو خطار وابنه نادر إلى الكراندوكا فرديننو الثاني في فلورنسا وكان ذلك سنة ١٦٣٥. ورجعوا بعد سنتين أي بعد ظهور الأمير ملحم المعني واستظهار القيسية على اليمنية. وسنة ١٦٤٧ في غرة تموز توفي ابو نادر الخازن وخلفه في خدمة الأمير ملحم ابنه نادر ففاق أباه بنفوذه ومداركه ووكل إليه الأمير جباية الأموال الأميرية من كل الجهات ومن سائر أصحاب المقاطعات التي في عهدته. وسنة ١٦٥٦ أنعم عليه البابا اسكندر السابع بالكوليرية الرومانية وأن يتقلد سيفًا ويعمل مهاميز من ذهب. وسنة ١٦٥٩ أنعم عليه ملك فرنسه بقنصلية بيروت وعهدت إليه أيضًا قنصلية البندقية. وسنة ١٦٧١ أحال السلطان محمد الرابع مقاطعة كسروان ومزارعه إلى عهدة أبي نوفل وأولاده.

https://patriarchatdeuaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehdeb-Zgharta

وقد اتخذ أبو نوفل مواهب الله ونعمه وسيلة لعمل الخير وتعزيز الدين فبنى الأديار وأسس الكنائس ودفع الضيم ما استطاع عن أبناء طائفته واقتبل الرهبان الافرنج عند قدومهم إلى لبنان وعضدهم في المشروعات الخيرية. فكم مرة فتح باب بيته للبطريرك إسطفان وكم جرّد سيفه لرد يد الظالمين وكم من الأديار أقامها وضمن لها البقاء في مستقبل الأيام بما وقف عليها من العقار. وكم من المساكين عالهم واقرهم في مواطن الأمن لما بددهم جور أعدائهم فعلى مثل هذا يحق أن تسخى العيون بعبراتها وبمثله يفتخر الأعقاب حاسدين من سلفهم.

قد مر الكلام عن أبي نوفل وكيف انه اغتاظ من انتخاب البطريرك إسطفان دون مشورته وكيف انه لما عرف بالاختبار قداسة هذه الحبر وسمو إدراكه وحكمته ونزاهته واستقامته بذل أمامه كل ما كان في وسعه احترامًا لشخصه الممتاز وغيرة منه على الدين الكاثوليكي المقدس وعلى الطائفة. ولهذا أطلنا الكلام فيه. ثم رأينا أن نثبت هنا بعض أبيات من زجلية يصف بها قائلها غزوات المتاولة (ويسميهم العوجان) على بعض قرى كسروان لأن هذه الأبيات تدل على مكان الشيخ أبي نوفل في اعتبار القوم ومنزلته في قلوبهم. قال الشاعر[٥]:

بسنة الف وستماية، وثمانين ربانية، الرب يتمّ الرعية
ونقل ابا نوفل يا اخوان
في شهر آب كان الافتقاد، بثاني عشر يوم يا اخوان، من الله الرب خالق العباد
وتيتّم بلاد كسروان
يا حيف عليه كان رجل جيد، بالكرم والسيف كان عنيد،
وكل من يضادّه كان يكيد
وينتصر على العدو اين ما كان
وبعقل وفطنة كان كامل، وخير وحسنة كان فاعل، ووصايا ربه قابل
وحافظها بكل ما أمكن
هذا تأبين الشعب وصته صوت الحق.

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

وفي تلك الغضون انتقل البابا اقليمس العاشر إلى جوار راعي الرعاة الصالحين وإلى مجازاة الاحبار النشيطين بعد أن دبر كنيسة الله الجامعة ست سنوات ونحو ثلاثة أشهر أي من ٢٩ نيسان سنة ١٦٧٠ إلى ٢٢ تموز ١٦٧٦. وقام بعده لرياسة البيعة المقدسة على الكرسي

[٥] وأظن أنّ المؤلف هو الخوري نجيم الذي سبق الكلام عنه ص ٩٧.

البطرسي اينكنتيوس الحادي عشر وكان انتخابه في ٢١ أيلول من السنة المذكورة آنفًا. فحرر له البطريرك إسطفان مقدمًا لقداسته فروض التهاني وعبارة الطاعة والإكرام باسمه واسم الطائفة كلها وبالفرصة ذاتها مسامعه الشريفة حاجات الكرسي البطريركي وحالة الشعب الماروني.
قال[٦]:

عنوان الرسالة

"إلى الأب الأقدس والإناء المختار المقدس خامس المبشرين الأبرار وثالث عشر الرسل الأطهار خليفة بطرس السليح ونائب السيد المسيح جليل الثنا والقدر. اينوشنسيوس الحادي عشر ألوف تقبيلات وافيات وتسليمات صافيات[٧]".

"بيعة الله المفرقة في أربع آفاق المسكونة والمجموعة من قبائل الأرض ولغاتها كما ان السيد المخلص بدمه الكريم استرجعها من عبودية الشيطان وبالماء الزكي أغسلها لتكون له عروسة بهية لا دنس فيها ولا سيئة. كذلك على ممكن أن يخليها من حسن عنايته الأبوية ولا أن يهمل بشيء يسير مما يخص تدبيرها وثباتها وتقويمها إلى غاية الدهور الزمنية. وإذا كان نحن الأشرار نتغاير على املاكنا ونصب يدينا ونرتب لها كنا ومناظرين يسهرون هجعات الليالي على إصلاحها. كم بالحري رب المجد الذي هو أصل النعم وينبوع كافة الخيرات يقيم رؤساء ومدبرين على غرسة نعمته الذين منذ البدء خلقهم على صورته وشبهه لرعايا بأسرها بخدمتهم. وفي آخر الأزمنة عندما ضلوا عن معرفته وتعبدوا للخطية انحدر بالرحمة من علو سمائه ومدّ يده على عود الصليب لأجل استفكاكهم وهبط بروحه إلى الهاوية حتى وقع الخروف الضال فنشله باستحقاق آلامه وعاد به مسرورًا إلى حظيرة مجده. فمن يتوهم عليه ان بعد ذلك يهمل بخلاصه ام انه يقفل باب الرحمة بوجهه ام انه يترك الذئاب الخاطفة تنهشه وتبدد شمله. ولذلك يشهد كتاب الإنجيل الطاهر الذي يحوى قوة الله انه حين اثر بصفوة بطرس لرعاية خرافه الناطقة سأله ثلاث دفعات ان كان يحبه أكثر من رفاقه. وعندما استقر بذلك أمام الثالوث الأقدس كرر عليه الأمر ثلاث دفعات قائلاً: ارعَ لي خرافي. ارعَ لي نعاجي. ارعَ كباشي. ليحقق له ان رعاية الأنفس لا تحق إلا لذوي المحبة الصادقة والأمانة الواثقة. وكما ان بطرس في تجريده العسكر جرّد سيفه وحده وقام باذاء كافتهم لمعضدة معلمه. كذلك وحده استوجب النيابة وان تكون له وخلفائه خاصة مفاتيح الحل والربط على كل بيعته. فتلك القرعة السعيدة التي انحدرت على

https://patriarchdouaihy.com
Maronite Patriarchal Eparchy Eden Zgharta

[٦] أثبتنا هذه الرسالة على أصلها.
[٧] هذه العبارة مستعارة من كتابات الحكام والأمراء في تلك الأعصار.

بطرس من السماء بلغنا الآن انها بعد انتقال اقليمس إلى رحمة مولاه استقرت عليك ايها الاب البار والإناء المختار. ولذلك بألفاظ التسابيح والتهاليل والتماجيد والتراتيل نقدم لله الآب الشكر والثناء الذي من لدنه تهبط كل عطية كاملة وموهبة صالحة. الذي ليس عمق لأحكامه الطاهرة. ولا قياس لغزير مودته الباهرة لجنس البشر الذي ينزل الاعزاء عن الكراسي ويرفع المتضعين إلى أجلّ المراتب. وإذا كان صحيحًا انه ليس سلطان الا وهو من قبل الله الذي يسلطه نقمة على الذين يعملون الشر ومدحة للذين يصنعون الصالحات. فماذا نقول عن الذين يعملون الشر ومدحة للذين يصنعون الصالحات. فماذا نقول عن الذي اصطفاه الله بنعمته وجعله أسطوانة الإيمان برحمته الذي سأل من أجله أن لا ينقص إيمانه وسلمه المفاتيح وأوعده أن باب الجحيم لن تقوى عليه كما هو قدسكم الذي انتخبتم بطلبات البيعة وبقرعة الأطهار وباستقرار الروح لتكون رب البيت ورأس الرعاة ومدبر النعم وخازن الأسرار وواضع السنن ومالك بيدك مفاتيح الملكوت إذ لا يقدر الإنسان يأخذ شيئًا إلا أن يعطى من السماء. ولذلك نشكره شكرًا دائمًا الذي جمّل بيعته بدعوة قدسكم. نحمده الذي نصبكم منارة لزوال (لإزالة) البدع ونمجده الذي أرانا (الراعي) الصالح الذي يبسط علينا نور وجهه. فنسأله يؤيد دولتكم ويرزق لسعادتكم طمأنينة الخاطر مع ثوب العافية سنين مديدة وأعوام عديدة. وكنت عزمت على نفسي بالقدوم حتى أتبارك من قدسكم وأهني غبطتكم بالدرجة السامية والسلطنة العالية لكن ما قدّر الله من كثرة الضنك والاضطهاد الحادث على شعبكم الماروني وخاصة في هذه السنوات الثلاث رأوا من المحن والمشقات ما لم يره شعب اسرائيل من الفراعنة. فان ضياع كثيرة خلت وبنيت ديورة احترقت والكنائس انهجرت وتقتل شعب كثير والباقي تفرقوا بين الأمم الغريبة من تغيير الاحكام وقساوتهم. ثم دخلت هذه السنة باجرد والزحاف حتى غطوا وجه الفلك والأرض. ثم تبعهم قحط والغلا حتى زادت الأسعار خمسة أضعاف كما كانت أولاً. لكن أحكام الباري غير مدروكة ومهما يجينا من جانبه مقبول على الراس والعين. وما قصدنا بهذه الأخبار تكدير خاطركم الشريف لكن لتأخذوا بطرف نظركم الكريم ملتكم المارونية المشتتة بين الملل الغير طائعة. ومثلما الرسول جاث على ركبتيه كان يسأل أهل أفسس يتأملوا دعوة الله إياهم وما كان عرضها وطولها وعلوها وعمقها كذلك نحن باركين على الأرض نسأل قدسكم تتأملوا دعوتكم فان روح القدس ما اختاركم على رومية وأوربا وحدهما إذ لا يحتاج الأصحاء للطبيب. لكن على جميع النصرانية وخاصة على الذين هم في الأطراف الذين أعداء الإيمان يطلبون نهشهم وسلبهم وقتلهم كما يشهد الكتاب ان العمالقة كانت تلصلص شعب اسرائيل فيسلبون ويخطفون ويقتلون الذين كانوا من الجوع ومشقة الطريق قصروا عن ارفاقهم. وبنظركم العام وبحلمكم الأبوي تتبصروا بالرحمة والرأفة على كرسينا وكنائسنا وكهنتنا الذين تحت عبودية البربر فلم يزالوا منذ الزمان القديم طائعين لسننكم وداعين لقدسكم بالدوام والبقاء والعلو والارتقاء. ولكن في هذا الزمان العسير من زيادة الظلم بقى حالهم على

https://patriarchdouaihy.com/Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

العدم. فنسأل غزير جودكم لأجل حب السيد المسيح وآلام المخلص أن تجعلوا نظركم علينا وتعاملونا بسواب[٨] مطران من خاصتكم وتجعلوا لكرسيكم الانطاكي مدخولاً سنويًا حتى نقدر نقوم في هذه الخدمة التي أؤتمنا عليها. إذ بين جميع ملل الشرق ما أحد طائع لشريعتكم سوانا ولا نحن ممقوتون بالزائد إلا بسببكم. والواصل إلى تقبيل أقدامكم أخونا المطران بطرس مطران الافقسية المكرم هو يخبر قدسكم بسائر أحوالنا فان رسم خاطركم الشريف تشملوه بنظركم الكريم وتفضوه بالعاجل حتى يعاود لرعيته ومهما تفضلتم به علينا ترسلوه معه حتى لا نزال قائمين بهذه الحملة. ونحن وشعبنا خاضعون على الأقدام نطلب لقدسكم طولة العمر وفضاوة البال.

تحريرًا في بلاد كسروان في ٨ من شهر أيلول المبارك سنة ١٦٧٩ ربانية[٩]."

تلميذكم الحقير

إسطفانس بطرس بطريرك انطاكية

إن بين وفاة البابا اقليمس وتاريخ هذه العريضة نحو ثلاث سنوات وسبب ذاك صعوبة المواصلات ومشقة الأسفار من المشرق إلى أوربا كما لا يجهل القاري اللبيب. وزد على ذلك ان المطران بطرس مخلوف حامل هذه الرسالة لم يغادر هذه الأديار إلا في العام التابع أي سنة ١٦٨٠. وأخذ معه ثلاثة أولاد إلى المدرسة الرومانية منهم تلميذه مخائيل القبرسي من مطوشي[١٠]

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ebden-Zgharta

[٨] أي مثل.

[٩] قد عثرنا على النسخة الأصلية لهذه الرسالة بخط الدويهي وتاريخها من دير مار شليطا في ١٠ تشرين الآخر سنة ١٦٧٦ ويذكر فيها القس يوسف مونس الذي كان تعين ليحملها إلى رومة ولا نعلم ما منعه عن السفر وقتئذ وعليه لم توجه قبل سنة ١٦٧٩ كما ذكرنا مع المطران بولس مخلوف. وفي الأصل عبارات أسقطها الدويهي. وسنأتي بذكرها في مكان آخر.

[١٠] كانت مطوشي (واللفظة يونانية تعريبها الدير ومنها الامطوش أو الانطوش) قرية مارونية عامرة فيها ثمان كنائس وموقعها بقرب دير مار الياس للرهبان اللبنانيين وبقاياها الآن آثار حقيرة ورمة كنيسة تعرف بكنيسة مار ماما.

وهذا خرج من المدرسة سنة ١٦٩٣ فسامه البطريرك إسطفان قسيسًا على سيدة الكفريات في قبرس في ١٠ نيسان سنة ١٦٩٤. ثم سنة ١٦٩٦ عاد إلى رومة وجهز مطبعة مع الخوري ابرهيم الغزيري في جبل فيسكون وطبعا فيها بعض كتب. ومخائيل ترك مصاحف عديدة منسوخة بيده بالحرف الكرشوني خصوصًا من تآليف البطريرك إسطفان كما سيأتي عند الكلام عن هذه التآليف.

والتلميذ الثاني مخائيل بن نعيمه الإهدني من بيت اميه وهذا بعد رجوعه من المدرسة خدم اسكلة طرابلس وتوفي عام ١٦٩٨ والثالث توما القدسي بن موسى من حصرون.

قد نوهنا باكدار الأسفار وصعوبة المواصلات في تلك الأيام بين المشرق وأوربا فكانت المراكب ألعوبة الأمواج والعواصف وكان الإنسان إذا أراد السفر إلى الغرب وردّه الريح صوب الشرق اضطر أن ينتظر انقلاب الهواء. وإذا وجد وسط المياه وهبت الرياح بوجهه أعادته عنوة إلى حيث كان وليس ما يدفع قوتها ولا ما يخمد هياجها.

وما كان الملاحون ليجسروا على الابتعاد عن الشطوط خوفًا من غدراتها ولذلك كانت الأسفار طويلة مخيفة مزعجة وكان المسافر يخاطر حقيقة بحياته ولا يرجو السلامة إلا من عناية الباري ورحمته. وقد أصاب العرب بقولهم عن البحر ان الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود. وزد على ذلك رداءة الإنسان فإنها في كل الأجيال قد فاقت قساوة العناصر الهيولية واختلق رجال السوء شرورًا تهون عندها أخطار الأمواج والعواصف. فصال البحر المتوسط مكمنًا يصطاد فيه الناس بعضهم بعضًا ويقودون فريستهم إلى أهوال العبودية وكلاهما أمرّ من كاس المنون. ومن القديم بدأ العرب سكان الجزيرة في المغرب بهذا الاقدام على الإنسانية وعلى الحرية وأخذ قرصانهم يطوفون البحور لهذه الغاية كما يطوفها الصيادون اصطياد السمك. فاغتاظ الافرنج من هذه الأعمال البربرية ونهض بعضهم وخصوصًا فرسان مالطه وعاملوا المغربيين بما سبقوا إليه فتفاقمت الشرور ووقعت الخسارة والأذى على المساكين والعابرين والمسافرين. فكان العرب يصطادون الافرنج والافرنج العرب ويستخدمون كل الذين قبضوا عليهم في الشغال الشاقة ويستعبدونهم رقيقًا. فمنهم من كانوا يكلفون بقذف المراكب والقيود في أرجلهم تمنعهم من الفرار أو الارتماء في الأمواج طمعًا بالنجاة ولو بالموت. ومنهم من كانوا ينقبون المعادن أو يباشرون غير أعمال شاقة ولا أجر لتعبهم سوى القوت القشف. وآخرون كانوا يخدمون مواليهم في دورهم أو حوانيتهم. والبعض كانوا يفتدون أنفسهم بالمال الكثير. فهذه الفواحش وهذا الافتراء على الإنسانية حمل بعض القديسين على تأسيس جمعيات لفداء الاسرى الذين كانت هذه حالهم حتى ان بعضهم كالقديس منصور أسلم ذاته للعبودية وتغلل في سلاسل الاسرى طوعًا واحتمل الرق والسر حبًا بخلاص القريب.

https://patriarchdoueihy.com/
Maronite Patriarchate Eparchy Enden-Zgharta

والكفريات تعرف عندهم بكفالو بريسو أي راس النبع من النبع الذي في راس القرية حذاء كنيسة مار أنطونيوس المارونية. أمّا كنيسة السيدة فقد استولى عليها الروم في أواسط القرن الثامن عشر وهي بيدهم إلى يومنا هذا.

أوضحنا كل ذلك لا رغبة في إطالة الحديث بل ليفهم القاري ما جرى للمطران بطرس مخلوف في سفره هذا إلى رومة فانه والتلامذة الذين كانوا معه وقعوا في أيدي المغربيين وأسروا وقيدوا إلى طرابلس الغرب. ولا حاجة بعد ما قلنا إلى وصف ما ذاقوا من الهوان والكأبة والخوف الذي اعتراهم عند هذا المصاب. ولا جرم انهم يئسوا من النجاة اذ لا دراهم بيدهم فيفتدوا نفوسهم ولا منقذ يدافع عنهم ويأخذ بناصرهم في تلك البلاد الشاسعة. فالتجأوا إلى الرب القدير الذي بسط الأرض والبحار وكوّن العناصر وقبض بيده قلب الإنسان. وتوسلوا إلى تلك التي يدعوها النصارى نجمة البحر وفادية الاسرى. فأرسل الله لإنقاذهم رجلاً إيطاليًا من مدينة مسينا في جزيرة صقليا اسمه ليونرد السمين[١١] وكان موكولاً إليه في مدينة طرابلس الغرب أمر الاسرى المسيحيين فخلصهم وبذل في إنقاذهم نحو ثلاثة أكياس دراهم كما يقول الدويهي. وابتاع لهم ثيابًا وهيأ لهم محلاً في أحد المراكب المسافرة إلى إيطالية وأعطاهم زادًا للطريق. ولأجل هذه المروءة والغيرة على المساكين والغرباء وخصوصًا لأجل صنيعه هذا مع مطران وتلامذة مارونيين أجزل مكافأته البابا اينكنتيوس ناهيك عما حسب له من الأجر والثواب عند الرب القدير الذي قال طوبى للراحمين. طوبى لفاعلي الخير.

هذا كل ما انتهى إلينا من هذا الحادث. وربما كتب الاسرى بالعربية شفع بهم وخفف مصابهم. غير ان التلميذ توما القدسي لم ينجُ الا بشفاعة قوية من الله وبعناية خصوصية من الباري تعالى وتبارك "المكتفل تدبير تلاميذ المدرسة" كما يقول البطريرك إسطفان. لأنه بعد أسره مع الآخرين وضعوه في قلعة المدينة ولأجل حسن خلقه بذل البغاة اجتهادهم لإخراجه عن الدين فكانوا تارة يودعونه بعذاب النار وتارة يغرونه بالنساء فصانه الرب كما صان الفتيان في اتون بابل ودانيال في جب الأسد. وأنقذه من القلعة ليونرد المار ذكره. وكان دخوله رومة في التاسع من آذار سنة ١٦٨١ بعد رفاقه بزمان غير يسير. ودرس فيها مدة عشر سنين ثم بعد رجوعه سامه البطريرك إسطفان قسيسًا على مغارة الصلب التي كانت لنا في القيامة المقدسة[١٢] في اليوم الثامن والعشرين من شهر آذار سنة ١٧٠٠.

أما المطران بطرس والتلميذان اللذان نجوا معه فكان دخولهم إلى رومة العظمى في شهر أيلول سنة ١٦٨٠. وحال وصولهم اقتبلهم الأب الأقدس بانعطاف أبوي أنساهم مرائر الطريق ومشقاته.

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

[١١] لعل الدويهي نقل بهذا الاسم علمًا إيطاليًا مثل: Grosso
[١٢] سنعود إلى ذكرها إن شاء الله.

ورفع المطران بطرس إلى الحبر الأعظم رسالة البطريرك التي أثبتناها وتهاني الطائفة المارونية جمعاء. فتعطف البابا بقبولها وانفذ إلى البطريرك مع رسوله المذكور الكتابة الآتية:

"انكنتيوس البابا الحادي عشر إلى الأخ المحترم اسطفانس البطريرك الانطاكي.

أيها الأخ المحترم السلام والبركة الرسولية

"ان الكتابة التي رفعتها إلينا على يد الأخ المحترم بطرس دوميط[١٣] مطران نيقوسية بمناسبة ارتقائنا إلى الحبرية العظمى شملنا منها سرور عظيم لأننا وجدنا فيها عبارة طاعتك الثابتة الدائمة وطاعة طائفتك المارونية الجزيلة التقوى التي لا يتزعزع إيمانها. وبالاستمالة الأبوية نشمل طائفتك بأسرها وأنت قبل الجميع بكل ما عندنا من عواطف الحب. ونرغب أن تعلموا وتتأكدوا اهتمامنا الخصوصي بتدبير شؤونكم وان بعد الشقة لا يمنع من أن تكونوا دائمًا نصب أعيننا كما سنثبته لكم بالبرهان كلما سنحت الفرصة. وقد أرسلنا لك الآن شيئًا غير جدير بالذكر علامة رضانا كما ستعرفنا من أخينا المذكور الذي اقتبلناه بسرور. ونأمل أنك تتخذ من ذلك سبيلاً للجدّ في تتميم واجبات وظيفتك الرعائية بكل غيرة ونشاط وتثبيت الشعوب الذين تحت ولايتك في الصبر على الشدائد التي يكابدونها لأجل الاعتراف بالإيمان الكاثوليكي بفرح الروح ناظرين الثواب العظيم جدًا الذي سندركه في السماء.."[١٤].

أما عربون الرضا الذي أشار إليه الأب الأقدس في رسالته فهي مبلغ من الدراهم. وقد قرأنا باي الحاح طلب منه البطريرك إسطفان المساعدة له ولكرسيه الانطاكي مبلغًا من حلم حبر الأحبار أن يعتبر هذا الكرسي والبطريرك الجالس عليه مثل كرسي أحد أساقفة البلاط البابوي ويساعده على القيام بعبء وظيفته الثقيلة وعلى خدمة الإيمان الكاثوليكي في هذه الاصقاع بثبات ونشاط. وقد عثرنا على وريقة وعليها بخط يد الدويهي بالإيطالية ما تعريبه:

"إسطفان بنعمة الله بطريرك انطاكية.

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

[١٣] انظر ما سيأتي عنه.
[١٤] "أعطي في رومة بقرب القديسة مريم الكبرى تحت ختم الصياد في ٢٣ تشرين الآخر سنة ١٦٨٠ وهي الخامسة لحبريتنا".

إنـي استلمت بواسطة المطران بطرس دوميط المحترم مطران نيقوسية[١٥] من السيد فوسطو[١٦] وكيلنا في رومة ثلاثمائة وسبعة ريالات ونصف وهو المبلغ الذي تكرم به الأب الأقدس انكنتيوس الحادي عشر الحبر الأعظم إسعافًا لهذا الكرسي الانطاكي المقدس. حرر في قنوبين في ١٠ كانون الأول سنة ١٦٨٢."[١٧]

بما انا فرضنا على ذاتنا رواية كل ما اتصل بنا عن الذين خدموا الطائفة والدين في عهد البطريرك إسطفان وحفظ ما عثرنا عليه من آثارهم بما أمكن من الترتيب رأينا أن نلخص هنا ترجمة المطران بطرس المذكور بعد أن تكلمنا عن ذهابه إلى رومة ومقاساته الوان المشقات في سفره.

هو بطرس بن دوميط من بيت مخلوف[١٨] من غسطا. ذهب إلى رومة سنة ١٦٣٩. وكان ذلك له انه لما قلّ عدد التلامذة في المدرسة الرومانية حضر إلى لبنان جوان باطشتا كرتي من الرهبنة اليسوعية لطلب تلامذة. فأرسله البطريرك جرجس بن عميرا إلى كسروان لدى المطران يوسف بن حليب العاقوري[١٩] فانتخبا خمسة عشر ولدًا من كسروان وصيدا والجبة وغيرها. وكان بينهم بطرس المذكور. فبعد أن درس العلوم الابتدائية وقضى ثلاث سنوات في درس الفلسفة وسنة في درس الإلهيات أخذ يهتم بما فيه فائدة للطائفة وكل جزء الشتوي من المتعيد إلى اللاتينية لنيل الإجازة بطبعه وعاد إلى الوطن سنة ١٦٥١ في اليوم السابع من تشرين الأول ولبس إسكيم الرهبنة في دير مار شليطا مقبس[٢٠] وسيم قسيسًا فيه وسنة ١٦٥٧ ذهب إلى رومة مع الخوري الياس عويضة الغزيري ليهنئا البابا إقليمس باسم البطريرك والطائفة ولما رقي الدويهي إلى البطريركية استدعاه وجعله كاتبًا عنده وفي سنة ١٦٧٤ في اليوم السابع من تموز رفعه إلى الأسقفية على كرسي قبرس بعد وفاة المطران لوقا بحضور سفير ملك فرنسة كما قلنا. فاجهد نفسه في تدبير تلك الرعية وزارها ثلاث مرات كما وجدناه مسطرًا على حائط كنيسة مار رومانوس في الجزيرة المذكورة. وكابد كثيرًا من معارضة الروم فيها وتعديهم على حقوق الموارنة. وكان الله حكم عليه بالنصب انى حل واورده موارد الاهوال اينما امّ. ففي سنة ١٦٨٠ لما أرسله البطريرك إلى رومة اسره المغربيون كما مرّ آنفًا وقاسى كثيرًا إلى أن نجا من يدهم وأنقذ الأولاد

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

[١٥] وهذه العبارة مع اسم المطران ضرب عليها.
[١٦] يريد مرهج بن نمرون الباني الذي أقامه الدويهي وكيلاً له وللطائفة لدى الكرسي الرسولي وبقي في هذه الوظيفة إلى موته سنة ١٧١٢.
[١٧] والواضح أنّ هذه الكتابة صورة وصل بالدراهم التي أرسلها الأب الأقدس مع المطران بطرس.
[١٨] وأصل هذه العائلة من أهدن.
[١٩] وهو الذي أسس دير حراش. ثم صار بطريركًا فيما بعد.
[٢٠] لم نتحقق أمر انتقاله إلى دير آخر.

الذين كانوا معه. وسنة ١٦٨٢ في اليوم العاشر من أيار كان رجوعه إلى لبنان يصحبه الشدياق بطرس التولوي. وقضى حياته في أعمال الصلاح والبرّ وكان يساعد البطريرك إسطفانس في تأليف الكتب ونسخها وفي سياسة الطائفة. وعني كثيرًا بتأسيس الأديار وتجهيزها ليقوم أهلها بتمجيد الله ويتفرغوا لعمل الخير. وجمع قصص القديسين في مجلدين كبيرين ثم اختصرها بشكل سينكسار لتقرأ على المؤمنين في الكنائس ووضع في السريانية ميامر وتشمشات عديدة. ولم نطّلع على حقيقة تاريخ وفاته والمرجح انه مات بعد الدويهي.

ومما يجد ذكره عن حوادث تلك الأيام انه سنة ١٦٦٧ ذهب إلى رومة مع فرا[٢١] توما من رهبان مار افرنسيس انطوني بن حنا ذكيّ من قرية اسوماتس في قبرس وأخوه فيلبي وكلاهما دخلا الرهبنة اليسوعية بعد أن قضيا في المدرسة المارونية ست سنوات. أما فيلبي فمات في رومة وأخوه انطونيوس بعد الابتداء وإنهاء دروسه صار كاهنًا وأرسل إلى دير عينطورا سنة ١٦٩٨ وكان مثالاً صالحًا بقداسة سيرته الرهبانية وعمر طويلاً وحضر المجمع اللبناني سنة ١٧٣٢.

وسنة ١٦٨٢ تبعه إلى رومة أخوه الصغير اسطفان إلا أنه بعد درس الفلسفة وعلم الذمة[٢٢] رجع برفقة مخائيل المطوشي لمرض اعتراه في عينبة.

وسنة ١٦٨١ في بيرمون عيد القديسين بطرس وبولس تم تأسيس دير حريصا لرهبان مار افرنسيس بعناية البادري بطرس امارينو ليكون لهم ملجأ في لبنان إذا ثارت عليهم التجارب والمحن في القدس. وتعين الدير المذكور مدرسة للرهبان المذكورين سنة ١٦٩٩. ثم جدد بناؤه على ما هو الآن عام ١٧٧٩[٢٣].

https://patriarchdouaihy.com/ Marounite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

[٢١] فرا لفظة إيطالية تعريبها الخ.
[٢٢] عبارة قديمة لعلم الشرائع الدينية ويعرف الآن "باللاهوت الأدبي".
[٢٣] راجع المقاطعة الكسروانية ص ٩٦ وما يليها.